فلسطين في الشعر العربي قبل النكبة

بقلم حميرة أبو غزالة

لما وضعت الحرب العالمية أوزارها وقعت البلاد العربية في نطاق من السيطرة الاجنبية المقنعة بأسماء الحماية والوصاية والانتداب .

فقد أسفر اجتماع سان ريمو عام ١٩٢٠ عن احتلال الانكليز والفرنسيين للشام ومصر والعراق ، وخوفا من ان تتكرر التجمعات العربية ثانية وضع الاستعمار خطة لخلق مشاكل اقليمية متعددة حتى يستقل كل جزء بمشاكله ، فتقوى التجزئة وتضعف روابط الوحدة وتتجزأ القوى النضالية .

فخلق من الشام دولا أربع ، دولة دمشق وحلب وجبل الدروز والعلويين ، وذلك ليفصل القوى الثورية عن دمشق ، واقتطع من سوريا بيروت وصيدا وصور وطرابلس وضمها الى لبنان ، ليخلق الحزازات النفسية ، ويضعف العقيدة القومية في النفوس ، وأخرج لواء الاسكندرون عن حلب وضمه الى الاتراك عام ١٩٣٩ .

اما الاردن فقد قسمها الى اربع ادارات : عجلون والكرك والسلط وعمان ، كل جزء له نطاق اداري وقضائي يختلف عن الاخر . ولما عجزت انكلترا عن المحافظة على الحدود التي اصطنعتها بين الاردن والشام وضعت الامير عبد الله اميرا عليها على ان يتعهد بالمحافظة على الحدود من البدو والحضر ، كل ذلك مقابل ان تبذل الحكومة البريطانية المساعي لتحسين العلاقات بين الامير والسلطات الفرنسية في سوريا على تعديل حدود الامارة الاردنية لتلحق منطقتا حوران وجبل الدروز بشرقي الاردن ، واما مصر فلم تجد طريقة تمتص فيها القوى النضالية الا باعلان الحماية عليها وحرمانها من حق قيام حكومة وطنية ، وأثارت في طريق كفاحها عقبات متعددة لتنفي عنها اي شعور بالاستقرار ولتشغل قوى البلاد بالكفاح الداخلي فتبعدها عن التفكير في البلاد العربية الشقيقة ، فأثارت في طريق استقلالها حماية المصالح الاجنبية ، ومشاكل الري مع السودان ، وامتيازات الدولة البريطانية كما جعلت من القصر ستارا تسخره لتحقيق ما تعده من مؤامرات .

وسلكت الحكومة البريطانية في فلسطين مسلكا آخر لتضرب البلاد العربية كلها اذا ما فكت عنها قيودها وتحررت أرضها ، وذلك بوعد بلفور الذي جعلت له في نظرها حرمته بادخاله في صك الانتداب ، فأنشأت الوكالة اليهودية كحكومة ثابتة في البلاد ، وجعلت اللغة العبرية لغة رسمية كما جعلت لليهود حق التشاور مباشرة مع لندن في كل شأن من شؤونهم . فهل وقفت كل هذه العقبات امام المشاعر العربية الموحدة في كل بلد عربي ؟؟ وهل منعت هذه المشاكل الداخلية على كثرتها وتعددها دون تجاوب البلد العربي الواحد نحو البلاد العربية كلها ؟؟.. ودون التجاوب الفكري والعاطفي ؟؟

لا اريد ان أتحدث عن التجمعات العربية بين الحربين الاولى والثانية فانها كثيرة متشعبة ، ولا اريد ان اتحدث عن موقف البلد العربي الواحد امام اخوته من البلاد العربية الاخرى ، فالمواقف كثيرة تؤكد قوة الصلة وأصالة القوميين ، ولكنني أتناول في حديثي قضية فلسطين . القضية الاولى التي وقف عندها الادب العربي في كل جزء من اجزاء هذا الوطن الممزق ، والشعر بنوع خاص ، فأولاها من عاطفته وأحاسيسه الجزء الاكبر منها رغم مشاكل كل جزء ، فكانت فلسطين النداء الاول الذي ارتفع ينبه العرب جميعهم الى ما ينتظرنا من هزائم نتيجة هذه التجزئة وهذا التقسيم ، وكانت فلسطين الصوت الاول الذي ارتفع يدعو الى الوحدة ويستنجد بها لان التجزئة فرضت ليسهل سرقة البلاد واقتطاع ارزاقها والتصرف في ارضها ، ذلك لان الجرثومة التي زرعت في تلك الارض المقدسة تختلف عن غيرها من الجراثيم لانها فيها حركة النمو والتطور والتشعب .

فمنذ وعد بلفور الى النكبة وناقوس فلسطين ترتفع دقاته منذرا ومحذرا ..

ومنذ وعد بلفور والعرب في فلسطين يحاولون جهدهم تحقيق الوحدة العربية كلما ظهر في الافق بوادر لها .. التفوا حول الحسين فخابت آمالهم ، وتعلقوا بفيصل وباعلان الدولة العربية في سورية فطعنت احلامهم ، فلم ييأسوا او يستسلموا بل ثابروا وجاهدوا وتحملوا صنوف التعذيب ودخلوا مختلف المعارك وأضاعوا آلاف الشهداء الى ان كانت الكارثة وحلت النكبة .

وكان دور الادب كبيرا في قيادة هذه المعركة ورفع تلك الشعارات وتنبيه الامة وتحذيرها مما يدبر لها ويعد للايقاع بها ، فكان عامل تذكير واثارة كما كان عامل تجميع للمشاعر العربية في اطارها الادبي ، فلم يخل ديوان من دواوين الشعراء دون ذكرها ، بل لم تمض سنة من السنوات دون ان تذكر على السنة الشعراء وفي المحافل الادبية ، فكانت القضية القومية الاولى التي بدت في افق الفجر العربي الجديد وفي مجال الشعر القومي .

ففي عام ١٩٢١ قدم الوفد الفلسطيني الى مصر فبالغ الشعراء في تكريم هذا الوفد والاحتفال به ، وفي ذلك يقول الكاظمي شاعر العرب في المجموعة الثانية لديوان الكاظمي ص ٢٣٤ :

يرى العرب فرضا رعى رد حليفها ... اذا جد في رد الحقوق تشرشل
وان لم يكن حكم اليراع بعادل ... فان رجوع السيف في الناس اعدل
بني المجد ان شد الزمان عليكم ... فشدوا واما يجهل الدهر فاجهلوا

وأثناء زيارة الوفد الفلسطيني للنجف اقيمت له حفلات كثيرة ترددت فيها قضية فلسطين وغدر الحلفاء بالعرب ، وتنبأ الشعراء أثناءها بوحدة عربية تكون فلسطين هي السبب في تحقيقها ، وفي ذلك يقول محمد علي اليعقوبي في مجموعة « الفلسطينيات » ص ٥٥ مطبعة العربي في النجف :

عسى وحدة للعرب انتم دعاتها ... يلم بكم عما قريب شتاتها
حدادا لما قاست فلسطين انها ... عليها الرزايات التقت حلقاتها

محمد علي الحوماني

ابراهيم طوقان

بشاره الخوري

اذا اليوم لا يطفى شرار لهيبها ... فهيهات تطفى في غد جذواتها
تئن فيبكي العالمين أنينها ... وتشكو فتشجي العالمين شكاتها

الى ان يقول :

وما موتنا بين الورى وحياتنا ... مدى الدهر الا موتها وحياتها

وكان وعد بلفور وصهيون والحديث عنهما مادةلكثير من شعرائنا ومثارا للمآسي في نفوسهم ، فيقول رشيد سليم الخوري يذكر الانكليز ان الله اكبر من وعودهم ، كما يذكر العرب بالحروب الصليبية وصلاح الدين ، وذلك في قصيدة مطلعها :

الحق منك ومن وعودك اكبر ... فاحسب حساب الحق يا متجبر

ويقول فيها :

تعد الوعود وتقتضي انجازها ... مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من اهل المكارم لم تكن ... من جيب غيرك محسنا يا بلفر

ويقول :

يدعوك شعبك يا صلاح الدين قم ... تأبى المروءة ان تنام ويسهروا
نسي الصليبيون ما علمتهم ... قبل الرحيل فعد اليهم يذكروا

وفي أستنكار وعد بلفور يقول الحوماني أثناء المظاهرات التي اقيمت في الشام تعبيرا عن سخطهم لهذا الوعد واستنكارهم له :

لفلسطين في الشام يد ... لا يغفل عنها لبنان
ان فرقها بلفور فقد ... وحدها قبل عدنان
هتفوا والحرب تهددهم ... لنمت ولتحي الاوطان

ونسمع ابراهيم هاشم فلالي يقول :

صهيون نال برجسه ... ما لم ينله بقوسه
خدع الورى بفجوره ... وبراحه وبكأسه
جمع الجناة بداره ... ودعا البغاة لعرسه
وأتى يؤسس موطنا ... بين الاباة لجنسه

وكانت كل حادثة تجري وقائعها في فلسطين تجد لها صدى في البلاد العربية ، ففي صيف ١٩٢٩ حاول اليهود الخروج عن التقاليد الثابتة المتعلقة بصلاتهم في موقع البراق ، فهاج العرب وثاروا لانهم فطنوا لما يضمره اليهود من وراء هذه المحاولة من الاعتداء على الاماكن الاسلامية المقدسة ، فنشبت اضطرابات عنيفة في مدن الخليل وصفد ويافا وقع فيها عدد كبير من القتلى اليهود، وحاولت السلطات الاستعمارية مساعدة اليهود كعادتها دائما كلما نشبت أضطرابات وظهر ضعف اليهود ، فألقت القبض على ثلاثة من المناضلين العرب أعدمتهم على مرأى من الشعب ، وفي ذلك يقول ابراهيم طوقان في ديوانه « ص ١٨ دار الشرق الجديد بيروت » :

لما تعرض نجمك المنحوس ... وترنحت بعرى الجبال رؤوس
ناح الاذان وأعول الناقوس ... فالليل أكدر والنهار عبوس
طفقت تثور عواصف وعواطف ... والموت حينا طائف أو خاطف
والمعول الابدي يمعن في الثرى ... ليردهم في قلبها المتحجر

ويقول امين ناصر الدين في هذه الحادثة في ديوانه « الالهام » ص ١٩٢ الصفاء ــ لبنان :

هذي فلسطين فاضمد جرحها الدامي ... وانضح ثرى قدسها بالمدمع الهامي
وقل لابطالها المستشهدين كذا ... يموت كل أبي النفس مقدام
جدتم بأرواحكم دون البراق ومن ... أعزه البأس يأبى ذل احجام

وكذلك يقول عبد الرحيم مصطفى قليلات في حوادث المبكى :

أيها السكناج ما الحق الذي ... فيه أثبتم لصهيون الوجودا
أبفضل والمعالي ما رأت ... فيكم الا حسودا او حقودا
أم بأصل وفلسطين بكم ... ما حوت الا شريدا او طريدا

اما ثورة ١٩٣٦ ، تلك الثورة التي دارت رحى معاركها الطاحنة بين العرب والانكليز ، واشترك فيها العرب السوريون والعراقيون والاردنيون مما جعلها بحق ثورة عربية كبرى ، فقد قيل فيها الكثير من الشعر نذكر منها قصيدة بشارة الخوري بعنوان « يا جهادا صفق المجد له » من ديوان الهوى والشباب ص ١٦٥ :

سائل العلياء عنا والزمانا ... هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا ... لم تزل تجري سعيرا في دمانا

وقد اهتزت البلاد العربية جميعها لاعمال القمع والبطش والارهاب التي قام بها الانكليز ضد السكان العرب وحرق قراهم وتشريدهم ، فاحتجت جماعات

المفكرين وثار الشعب العربي مطالبا الدفاع عن اخوانهم المجاهدين ، ودام اضراب العرب في فلسطين ستة شهور توقفت فيها الحياة بكل الوانها ، وقدم الفلسطيني أثناءها أروع البطولات في الصبر على الجهاد واحتمال صنوف العذاب حتى اصبحت مضرب الامثال في تاريخ الكفاح العربي ، الى ان توجه غازي العراق ويحيى اليمن وابن سعود وعبد الله بنداء لايقاف القتال ، وانتهى بقرار التقسيم الذي وضعته لجنة بيل فرفضه العرب بينما وجد فيه عبد الله الحل العملي لهذه القضية ليصبح ملكا على رقعة أوسع من الارض العربية ، ويقول وديع البستاني في ذلك :

نادى الملوك فلبينا نداءهم ... ان الرغائب ما شاءوا وما رغبوا
سبعون يوما توالت بعدها مائة ... وسبعة والضحايا فوق ما حسبوا
في ذمة الله قتلانا وذمتهم ... دين الى اجل يقضى ولا طلب

وبدأنا نسمع صيحات شعرائنا العرب في مصر تردد ما يقع من المآسي في فلسطين ، فبعد ابرام المعاهدة البريطانية المصرية نسمع الدكتور محمد حسين هيكل باشا يصرح اثناء نقده لمعاهدة ١٩٣٦ « كانت الحكومة المصرية تعمل جهدها لمنع نشر انباء فلسطين في الصحف او العطف عليها باسم الحرص على المفاوضات المصرية البريطانية » .

فنسمع صوت احمد محرم يقول عام ١٩٣٨ قصيدة بعنوان « وطن يعذب في الجحيم » :

لبيك يا وطن الجهاد ومرحبا ... لبيك من داع أهاب وثوبا

ويصرح في قصيدته ان الهدف من هذا العمل هو اصابة العروبة جميعها بنكبة وان كفاح أبناء فلسطين هو كفاح العروبة جميعا :

انا لنعلم ان آكل لحمهم ... سيخوض منا في الدماء ليشربا

الى ان يقول :

يا آل يعرب من يريني خالدا ... يزجي الخميس ويستحث القنيا

وفي المؤتمر الثقافي في لبنان الذي عقد عام ١٩٤٧ ينتقل علي الجارم من التغني بلبنان الى ذكر فلسطين وما يحدث ذكرها في نفسه من الالم فيقول في الجزء الاول من ديوانه ــ مطبعة المعارف ص ١٧٨ :

بني العروبة ان الله يجمعنا ... فلا يفرقنا في الارض انسان
لنا بها وطن حر نلوذ به ... اذا تناءت مسافات واوطان
قلبي وفيض دموعي كلما خطرت ... ذكرى فلسطين خفاق وهيمان
لقد أعاد بها التاريخ أندلسا ... أخرى وطاف بها للشر طوفان
ميراثنا في فتى حطين اين مضى ... وهل نهايتنا يتم وحرمان ؟
ردوا تراث أبينا ما لكم صلة ... به ولا لكم في امرنا شان
بني فلسطين كونوا امة ويدا ... قد يختفي في ظلال الورد ثعبان
وكيف يأمن رعيان وان جهدوا ... اذا تردى ثياب الشاة سرحان

وقد وضعت بعض الهيئات دواوين ضمت قصائد عن فلسطين نذكر منها جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف ، فقد جمعت مجموعة من الشعر الذي نظمه شعراؤها في مختلف المناسبات عن فلسطين أطلقوا عليه اسم « الفلسطينيات » كما وضع ايضا الشاعر وديع البستاني ديوانا آخر اطلق عليه ايضا «ديوان الفلسطينيات»

وهكذا توالى الشعر العربي في الالتفاف حول أولى القضايا القومية يوليها الكثير من أحاسيسه ومشاعره ، ولست بصدد نقد هذا الشعر او تقييمه ، فهذا موضوع يخرج عن نطاق بحثي ، وانما قدمته لاعرض اصالة مشاعرنا في زمن لم ينقصنا فيه الا التنظيم والوعي الكامل بطرق المستعمر ومكائده ودسائسه وأساليبه المختلفة مما تتكشف لنا الان واضحة جلية ، وبقي تجاوب الشعراء قائما الى ان حلت النكبة وحدثت المأساة التي كان اول من تنبأ لها هم الشعراء انفسهم .

ودخلت البلاد العربية في طور جديد واسلوب جديد من أساليب تحقيق الوجود ، وابراز الشخصية العربية بكل مفاهيمها ومقوماتها ، فكانت نكبتنا في فلسطين الناقوس الذي دق ليعلن انتهاء نظم الحكم الفاسدة التي سببت النكبة وأضاعت الارض ، فنتج عن ذلك ثورة مصر والتخلص من الفئة الباغية وانتهاء الحكم الملكي حكم القصور واعلان الجمهورية العربية المتحدة لتأخذ طريقها القيادي في معركة التحرر العربية ، وبدأت موجات التحرر العربي تشق طريقها فاذا بثورة الجزائر تتفجر بقوة واندفاع جماهيري لتحقق شخصية الجزائر العربية وتثبت وجودها العربي .

ولم يقف الامر عند ذلك بل امتد الى ثورات مد وجزر مستمرة في سوريا والعراق ، والى ثورة أبادت الحكم الفاسد في اليمن والى تحقيق الوحدة بين الجمهورية العربية وسوريا ، وجولات متواصلة في سبيل تحطيم العهد البائد أدوات عهد ما قبل النكبة .

كل هذه الانفجارات الشعبية كانت قضية فلسطين هي المحرك لها والمؤجج لنيرانها ، فقد نما الوعي ، واتضحت طريق الوحدة العربية التي تحمي مكاسبنا وتحمي حقوقنا وتحقق وجودنا ، ولن تكون الايام القادمة ببعيدة حينما يتخلص الوطن العربي من ذيول الانتهازية والرجعية والانفصالية ليدفع بقوته الكامنة في حنايا أبنائه الى عهد جديد وأمل جديد في وحدة عربية مرتقبة لاستعادة الوطن السليب .

سميرة ابو غزالة

صدر حديثا :

تأليف :
غسان كنفاني

البـــاب

مسرحية

دار الطليعة ــ بيروت ص. ب ١٨١٣